

قنوات وأنماط التواصل في كتاب "البيان والتبيين" (*) للجاحظ

زكرياء الانصاري

طالب باحث في سلك الدكتوراه

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة

الملخص

يروم مقالنا هذا إلى قراءة في قنوات وأنماط التواصل في كتاب "البيان والتبيين" لصاحبه أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناشي الملقب بالجاحظ، حيث أبرز هذا الأخير كيف يمكن للغة أن تكون أداة قوية في التواصل بين الناس، دون أن يغفل الجاحظ أهمية الطرق التعبيرية الأخرى من إيماءات، وحركات وإشارات وتعاير الوجه مع تأكيده على أهمية الصمت في التواصل. وهكذا يمكن أن نستشف من خلال كتابه فيما يتعلق بالتواصل وقنواته وأنماطه ما يلي:

- يرى الجاحظ أن اللغة هي الوسيلة الأساسية التي تتواصل بها مع الآخرين وهي ليست مجرد كلمات، بل هي وسيلة لنقل الأفكار والمشاعر بشكل فعال كما يشدد على أهمية اختيار الكلمات بعناية، وأن تكون واضحة ومؤثرة؛
- يتحدث الجاحظ عن أهمية الأساليب البلاغية مثل التشبيه والاستعارة التي تجعل الحديث أو الكتابة أكثر جاذبية كما يرى أن اللغة يمكن أن تكون أكثر تأثيراً إذا استخدمنا فيها الأساليب التي تجعل الفكرة أقوى وأوضح؛
- لا يقتصر الجاحظ على الكلام فقط، بل يشير أيضاً إلى أهمية الإيماءات وحركات الجسد في التواصل مبرزاً أن التعبيرات الوجهية والإشارات قد تكون أحياناً أكثر قدرة على إيصال المعنى من الكلمات نفسها؛
- يعتبر الجاحظ أن الخطابة فن من فنون التواصل التي تعتمد على الصوت والنبوة بالإضافة إلى المحتوى، ويقول إن المتحدث يجب أن يختار أسلوبه بناءً على الجمهور والموقف، ويجب أن يكون قادراً على إقناع الآخرين بأفكاره؛
- بالنسبة للجاحظ لا يتم التواصل فقط من خلال الكلام، بل يحتاج أيضاً إلى الاستماع الجيد والتفاعل بين الأطراف، فالتواصل الفعال بالنسبة له يتطلب أن يكون الطرفان قادرين على الاستماع وتبادل الآراء بشكل يعزز الفهم المتبادل.

الكلمات المفتاحية:

قنوات التواصل، أنماط التواصل، البيان، التبيين.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الانصاري، زكرياء. (2025، يناير). قنوات وأنماط التواصل في كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، العدد 1، المجلد 2، السنة 2، ص 467-474.

* أبو عثمان عمرو بن محبوب كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، مصر.

مقدمة:

تنبه العرب في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية والبلاغية الى الظاهرة الكلامية وما تقوم عليه من أسس، وما تحققة من غايات فضلاً عما يكتنف دورة التخاطب من ملاسبات. وقد قادهم البحث في هذا المجال الى القيام بمجموعة من البحوث والدراسات بغية سبر أغوار ظاهرة الكلام او الخطاب. ويعد كتاب "البيان والتبيين" ل أي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الملقب بالجاحظ أحد الكتب التي اهتمت بموضوع التخاطب واللغة، حيث تناول الجاحظ في هذا الكتاب أهمية اللغة كأداة للتواصل بين الأفراد، وكيف أن البيان والتبيين يشكلان أساساً لهذا التواصل الفعال.

بناء على ما سبق إلى أي حد ظهرت معالم البحث في الظاهرة التواصلية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ؟ وماهي حدود نظرتة لهذه العملية خلال القرن الثالث الهجري؟ ثم ماهي نقط التشابه والتقاطع مع النظريات اللسانية الحديثة؟

يُعدُّ كتاب "البيان والتبيين" من أبرز وأهم مؤلفات الكاتب والمفكر العربي الجاحظ (ت. 255 هـ)، وهو أحد الكتب التي أسهمت بشكل كبير في تطور الأدب العربي وأساليب التعبير اللغوي، كما يعكس هذا الكتاب إلمام الجاحظ العميق بالبلاغة والفصاحة، ويعتبر مرجعاً مهماً في علوم اللغة العربية، وتحديدًا في فني البيان والتبيين، اللذين هما أساس فهم الرسالة اللغوية. يقدم الجاحظ في هذا الكتاب دراسة موسعة حول أساليب التعبير اللغوي وطرق إيصال المعنى بشكل دقيق وواضح، ويستعرض فيه العلاقة بين اللغة وبلاغتها، مستعرضاً القواعد التي تحكم أساليب القول والتبيين، مع إعطاء أمثلة متعددة من الشعر والنثر في عصره. كما يُعتبر الكتاب موسوعة بلاغية، حيث يعرض فيه الجاحظ آراءه حول جالية التعبير والقدرة على إقناع المتلقي، من خلال تحليل فني لعدد من الأساليب البلاغية المختلفة مثل الاستعارة، والكناية، والمجاز. ومن خلال مناقشاته، يظهر الجاحظ اهتمامه العميق بالقدرة على التأثير في المتلقي عبر أبلغ وأدق وسائل اللغة.

لا تروم دراستنا هذه إسقاط النظريات اللسانية الحديثة على التراث العربي إنما تسعى الى التنقيب عن أفكار هذه النظريات في الموروث العربي القديم، من خلال كتاب البيان والتبيين، وذلك بخصوص نظرية التواصل بشكل خاص لأن النظر في تراثنا يكشف عن جهود جلية لعلماء التفسير والأصول والنقاد ثم البلاغيين في استخدام السياق بشقيه اللغوي والمقامي أثناء ممارسة قراءة النصوص الدينية والأدبية بهدف الكشف عن معانيها أو بيان بلاغتها، أو الوصول الى أسرار جلالها.

وإذا كان هدفنا هو الوصول الى استخراج أنماط وقنوات التواصل من خلال هذا الكتاب (البيان والتبيين)، فلا بأس أن نقرب المتلقي أولاً من مفهوم التواصل وعناصره الأساسية (خصوصاً عنصر القناة) ارتباطاً بمفهومي البيان والتبيين لأن ذلك سيساعدنا في تقريب الصورة بشكل جلي للمتلقي.

ينظر الجاحظ من خلال كتابه هذا للتواصل (التواصل اللغوي) على أنه عملية تبادل المعلومات والأفكار بين الأفراد، سواء كان ذلك بطريقة شفوية أو غير شفوية، والغرض منه هو الوصول الى فهم مشترك للمعلومات أو تحقيق الاتفاق حول شيء معين. وذلك عن طريق **قناة تواصل** والتي تشكل المادة، أو الشكل، أو الوسيلة التي تستعمل لنقل الرسالة من المرسل الى المرسل إليه، نحو الذبذبات الصوتية التي تكون في حال التواصل الشفهي، وكما اختلفت الرسالة اختلفت معها القناة فين نتكلم ونستمع نكون أمام قناة سمعية كما هو الشأن في المحاورة وقد تكون قناة بصرية حينما نرى بعض الصور والعلامات بالبصر، وقد تكون قناة شمية عند شم الروائح أو قناة حسية...

انطلاقاً مما سبق نصل الى خلاصة مفادها أن لكل عملية تواصلية قناة ملائمة ومحددة، بل وأكثر من هذا فقد يرتبط المتكلمون بواسطة مجموعة من القنوات.

وارتباطاً بمفهومي البيان والتبيين فقد تحدث الجاحظ عن وظائف الخطاب وسط زخم كثير من التداخل بين مفاهيم البيان ومراتب الكلام وما يلحق ذلك من ظروف المقام فالبيان عنده تتنازع وظيفتان:

- البيان بوصفه معرفة ذو وظيفة فهمية خطابية خالصة.

- البيان إقناع أو وظيفة الفهم والإفهام.

ويركز الجاحظ على هذه الغاية حيث أن هذه الوظيفة هي الأمر الذي يجري إليه القائل (المرسل) والسامع (المرسل إليه) وأن هذه العملية مناط كل بيان، وروح كل قول مهما تضمن من مقاصد أو ما أنيط به من غايات ولعل هذا المنزع هو الذي جعله يوسم كتابه بالبيان والتبيين لأنه القطب الذي عليه المتكأ واليه الملجأ.

فالتواصل عند الجاحظ لا يتأق إلا من جهة الفهم والإفهام وقد خص هذه الفكرة بقسط وافر من التحليل والتعليل وذلك نحو قوله "والبيان اسم جامع لكل شيء، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"¹.

1- أبو عثمان عمرو بن محبوب، كتاب البيان والتبيين، الجزء الأول، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ، مصر، ص 76

ومن تتبع آثار الجاحظ بخصوص هذه القضية يقف على نتيجة مفادها أن وظيفة الفهم والإفهام تجري على أنماط شتى من طبقات الكلام. فهي تتواجد في مألوف الكلام وعاديه إذ "يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤق السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤق الناطق من سوء فهم السامع" كما تتواجد في الكلام الجمالي الذي تسمو فيه ذروة الإبداع، وتجد فيه خلاصة الإمتاع وقوة الإقناع وهذا ما نلمسه بجلاء عند استشهاده بصحيفة بشر بن المعتمر التي جاء فيها "فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، ولحما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداحك، واقتدارك على نفسك إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام".

بالرجوع الى كتاب البيان والتبيين نهتدي الى ما يعتري الظاهرة الكلامية من ملاسبات، وما تقتضيه عملية التواصل من متركزات تنظم من خلالها دورة التخاطب المفضية الى تحقيق المقاصد والغايات. وقد قادنا البحث في هذا المجال الى التوصل الى الأركان الأساسية لعملية التواصل حيث إن المنجز اللغوي مرتبط بسياق خاص تراعى فيه جملة من العوامل المؤثرة في التواصل والتي يوطرها المتكلم على اختلاف درجاته، والسامع وأحواله، والمقام وملابساته، والرسالة وما تتميز به من خصائص تؤهلها لحمل الأفكار، وقد جعل الجاحظ من الوظيفة الاتصالية المتمثلة في الغاية التي يجري إليها القائل والسامع بتعبيره حجر الزاوية في بناء العملية الاتصالية كونها المحرك الفاعل لهذه الأطراف. ولفطنة الجاحظ بأساليب الخطاب وبصره بأصنافه، وكيفية تأثيره يدعو المتكلم الى ضرورة احترام القصد والغاية من الكلام. فالمتكلم البليغ هو من يصرف وجوه القول على أساس مبدأ الاختيار لتحقيق الملاءمة بين مكونات الخطاب والسياق.

"ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقا، ولذلك القد لفتا، وخرج من سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكلف، كان قمينا بحسن الموقع وباتساع المستع".

وجملة القول في هذا أن الجاحظ أعطى لكل عنصر من عناصر العملية الاتصالية أهمية كبيرة في تكوين الخطاب وهنا لن أفصل في جميع العناصر وإنما سأقتصر على اللغة باعتبارها قناة للتواصل حيث سعى جاهدا الى الوقوف على خصائص الكلام البليغ، حيث ذكر حدودا متعددة للبلاغة رسم من خلالها معالم الكلام المؤثر الذي يشد الانتباه ويبلغ الرسالة في أحسن صورة، وأبهى معرض. وقد اتخذ من مبدأ الاختيار للألفاظ حدا

فاصلا بين نوعين من الممارسة اللغوية، ممارسة اجتماعية وأخرى فنية. وقد أطنب في الثانية لما لها من خصوصية بيانية تتجاوز حدود الفهم الى مشارف الإبداع الذي يعانق فيه الإمتاع.

ويمكننا أن نضرب مثالا لهذا عند الجاحظ حينما يقول: "فالخطيب البليغ هو من جعل أقدار اللغة ومجاري الكلام على حسب أقدار السامعين ومقتضيات الأحوال، وقد نجم عن هذه الفكرة العلمية قانون عام يربط المنطلقات بالنتائج، وتلك هي الفكرة المناسبة التي عبر عنها بمصطلحات عدة كالمقام والموضع والحال..."

ومن خلال الاطلاع على هذا الكتاب يتبين أن لهذا التواصل أشكالا يمكن ذكرها على النحو التالي:

- التواصل اللفظي؛
- التواصل غير اللفظي؛
- التواصل المكتوب؛
- التواصل بالإشارة؛
- التواصل المباشر؛
- التواصل غير المباشر.

إن هذا الأمر هو ما عبر عنه الجاحظ في علم الدلالات حينما قسّم الدلالة إلى خمسة أقسام، فقال: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد، أولها: اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَدَد¹، ثم الخط، ثم الحال، وتسمى نُصْبَةً"².

فالألفاظ: هي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقذارها، وعن خاصّها وعامّها، وعن طبقاتها في السَّارِّ والصَّارِّ، وعما يكون منها لغوًا بهرجًا وساقطًا مُطَرَّحًا. أما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين، والحاجب، والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب والسيف، والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط...

1 - العقد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، يقال له حساب اليد، وقد ورد في الحديث أنه "عقد عقد التسعين".

2 - نفس المرجع السابق 76

وهنا ذكر الجاحظ مجموعة من الآيات الشعرية الدالة على أهمية الإشارة في التواصل:

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مدعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبا وأهلا وسهلا بالحبیب المتیم
وقال آخر:

وعين الفتى تبدي الذي في ضميره وتعرف بالنجوى الحديث المعمسا
هذا ومبلغ الإشارة أبعد من الصوت فهذا أيضا باب تتقدم فيه الإشارة عن الصوت.

الخط: فما ذكر الله تبارك وتعالى في كتابه من فضيلة الخط والإنعام بمنافع الكتاب قوله لنبیه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: 4] وأقسم به في كتابه المنزل على نبیه المرسل حيث قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1] ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين. وقالوا القلم أبقي أثرا، واللسان أكثر هدرا.

وقالوا أيضا: اللسان مقصور على القريب الحاضر، والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن (الهالك). كما أن الكتاب يقرأ في كل زمان ومكان واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوز الى غيره.

العقد: وهو الحساب دون اللفظ والخط، فالدليل على فضيلته وعظم قدر الانتفاع به، قول الله عز وجل: ﴿قَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام]

والحساب يشتمل على معان كثيرة ومنافع جليلة، ولولا معرفة الناس بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله معنى الحساب في الآخرة.

وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعقد فساد جل النعم واختلال كل ما جعله الله لنا قواما ومصلحة ونظاما.

وأما **النُصْبَة**، فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشييرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد ونام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجاء معربة من جهة البرهان "ولذلك قال أحدهم: سل الأرض ققل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فان لم تجبك حوارا، أجايتك اعتبارا.

وقال خطيب حينما قام على سرير الإسكندر وهو ميت:

الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس.

وقد استعمل المؤلف (الجاحظ) أساليب مختلفة لتحقيق الاتصال والتواصل ومن بينها:

- الحكايات؛
- الأساطير؛
- الأمثال؛
- العبارات المعروفة؛
- الشعر؛
- الخطب.

هذا ويحتوي الكتاب على العديد من قنوات التواصل والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

1. **القناة اللغوية:** حيث يستخدم المؤلف اللغة العربية بكل مهارة وإبداع، ويستخدم أساليب العرض والتعبير المختلفة من بينها الاستخدام الشعري والنثري والقصصي والشخصيات الأدبية.
 2. **القناة العاطفية:** حيث يعبر الجاحظ عن مشاعره وأحاسيسه بجرأة وصدق ويتناول في كتابه العديد من المواضيع التي لها علاقة بالعشق والحب والخيانة ويستخدم المصطلحات العاطفية المختلفة للتعبير عن هذه المشاعر.
 3. **القناة الفكرية:** يتناول الجاحظ العديد من المسائل الفلسفية والنفسية والاجتماعية، ويعرض الحلول والأفكار الخاصة به حولها ويعبر في بعض الأحيان عن رؤيته الخاصة في هذه المسائل.
 4. **القناة الثقافية:** يستخدم المؤلف المعارف والثقافة العامة بشكل واسع، ويتناول في كتابه عددا من المسائل التاريخية والأدبية والفنية، كما يستخدم أيضا الأمثال والحكم والأقوال المأثورة لتوضيح مواضيعه ويصل فكرته للقارئ.
 5. **القناة الدينية:** يتناول الجاحظ بعض المواضيع الدينية والشرعية ويستخدم القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين، ولهذا يعد من الشخصيات العلمية الدينية البارزة في عصره.
- أما فيما يخص الأنماط التواصلية في الكتاب فلنعبير عن الأفكار والمعتقدات استعمل الجاحظ جملة من الأنماط التواصلية والتي يمكن إجمالها فيما يلي:
1. **النمط النثري:** يتمثل هذا النمط في استعمال الفصاحة والبلاغة في الأسلوب النثري لتوصيل الأفكار والمعلومات وتفسيرها بشكل مباشر وواضح.

2. **النمط الشعري:** يتمثل هذا النمط في استخدام الجاحظ للشعر والأدب الشعري لتوصيل الأفكار وتفسيرها بطرق فنية وغنية بالإيجاءات، والرموز، والتشبيهات، والمجازات.
3. **النمط السردى:** استخدام السرد الأدبي الذي يعرض فيه أحداث بطولية أو تاريخية أو واقعية بطريقة مشوقة وممتعة تجعل القارئ يشعر بالإثارة والتشويق والإعجاب.
4. **النمط النفسى:** استعمال العمق النفسى والتحليل النفسى للشخصيات والأحداث والمواقف، حيث يقدم الكتاب تجارب نفسية وهموم شخصيات حتى يصل القارئ الى فهم عميق للشخصية وتأثيرها على الأحداث.
5. **النمط الفلسفى:** استعمال الأسلوب الفلسفى للتفكير والتأمل حيث يناقش بعض الأفكار والمسائل الفلسفية والشرعية والمعتقدات بطريقة عميقة وتحليلية.

خاتمة:

يعتبر أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى الليثى الملقب بالجاحظ من الأوائل الذين تطرقوا لموضوع التواصل، وقد تميز عن سبقه في هذا المجال بكونه درس القرآن الكريم، فاستخلص الحقائق التي تضمنها، وبذلك حق لنظريته في التواصل أن تقف جنباً الى جنب مع ما توصلت إليه الدراسات اللسانية الحديثة في آخر منجزاتها في هذا المجال ولو أن بعض هذه الدراسات الغربية وقفت فقط في حدود الملفوظ وهي تسعى لحصر وظائف اللغة وهو عكس ما توصل إليه الجاحظ عند حديثه على أدوات البيان والتي عبر عنها حينها ذكر: اللفظ، الإشارة، الخط، العقد، الحال والنسبة.

ختاماً، يمكن القول إن كتاب "البيان والتبيين" يقدم رؤى متقدمة في نظريات التواصل من حيث التركيز على تأثير اللغة في المتلقي، وأهمية أساليب التواصل المناسبة، بل ويعزز فهمنا لكيفية تأثير الخطاب بشكل عام في الأفراد والجماعات.